دراسات أدبيـــة

د.نظيــــــرة الكنــز

أسطــورة بلقيـــس في الأدب العربي

"بين النصوص المؤسسة والنصــوص المتخيلــة"

شغلت الأنثى بما امتلكته من مكونات طبيعية وبما اكتسبته حيّزا معتبرا في التراث الإنساني، وتعددت المجالات التي تمكنت من امتلاكها، وأبرزت قدرتها على التفوق فيها سواء أكان ذلك في السياسة أم الاقتصاد أم الحرب أم الإبداع. وتبعا لهذا تنوعت الأساطير الأنثوية على امتداد تاريخ الحضارات والمدنيات، حيث يقف المتأمل للتراث الإنساني على نماذج لا يمكن تجاهلها لنساء دخلن التاريخ والأسطورة من بابهما الواسع، نساء قويات عقلا وسلطانا، ومنتجات أدبيا وسياسيا واجتماعيا، وكنّ قوة موجهة ومؤثرة في تاريخ الحضارات، وقد نالت تبعا لذلك الأنثى حصة الأسد في الفضاء الأسطوري المشكل لإرث مختلف الشعوب زمانا ومكانا.

ومن أشهر الشخصيات الأنثوية التي لقيت رواجا كبيرا **"بلقيس"** ملكة سبأ، فقد استقطبت اهتمام أمم وشعوب من العرب وغيرهم، وقد تباينت الآراء والأخبار حول أصول هذه الشخصية، اسمها ومدّة حكمها، ولكنها تؤكد كلّها على تميّز هذه المرأة. وقد أخذت الملكة بلقيس صورا وتجليات كثيرة في التراث العربي، فهي الملكة الحميرية، الحكيمة المسالمة وهي رمز الأنوثة والجمال والملك.

تستمد أسطورة الملكة بلقيس أهميتها من ارتباطها بمملكة سبأ ثم بعد ذلك بالنبي سليمان عليه السلام، مما أكسبها شهرة لم تكن لكثير من الملوك من قبلها أو بعدها وضمنت بذلك أن تكون أسطورة متجددة عبر الزمان والمكان.

1-بلقيس في النصوص الدينية:

لم تكن بلقيس امرأة عادية، أو ملكة حكمت في زمن من الأزمان كغيرها من الملوك والأمراء، فقد ورد ذكرها في النصوص الدينية، وكان لها شأن عظيم لاتصافها برجاحة العقل، وسعة الحكمة والفهم وحسن التدبير والتفكير خاصة في أصعب اللحظات التي مرت بها مملكتها.

أ/بلقيس في العهد القديم:

لم يرد اسم بلقيس في العهد القديم، وإنما ورد في سفر الملوك الأول ذكر مكانتها وانتمائها (ملكة سبأ)، وقد ذكرت في خضم الحديث عن النبي الملك سليمان، وتعرض الإصحاح العاشر من هذا السفر لقصة هذه الملكة مع الملك سليمان، وما وصلها من أخبار حول عجيب وعظيم ملكه، فقررت أن تمتحنه وجاءته إلى أورشليم بموكب عظيم "وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الربّ فأتت إليه لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدّا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدّا وحجارة كريمة وأتت سليمان وكلّمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكلّ كلامها"(الملوك الأول /الإصحاح العاشر).

وقد تفننت الشروح التي تناولت هذه الزيارة في وصف موكب الملكة بلقيس وفي الحديث الذي دار بينها وبين الملك سليمان وقيل أنها طرحت عليه جملة من الألغاز والأحاجي لتختبر قدرته وحكمته وقد انتقل الكثير من هذه الأخبار في التراث الشفهي.

انبهرت بلقيس بما رأت من عظيم ملك سليمان وحكمته وقدرته فكان ما رأته بأم عينيها أعظم مما سمعت به فقالت للملك: " ...لم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي فَهُوَ ذا النصفُ لم أُخبَر به. زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذي سمعته ." الملوك الأول /الإصحاح العاشر).

وانتهت زيارة الملكة بأن سلمت سليمان ما أحضرته من ذهب ومال وطيب وأحجار كريمة "وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدّا وحجارة كريمة .لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان ." (الملوك الأول /الإصحاح العاشر). وأعطى الملك سليمان بلقيس كلّ مشتهاها وانصرفت إلى أرضها وما يمكن أن نستنتجه من ورود قصة ملكة سبأ في سفر الملوك :

*لم يذكر اسمها وإنما أشير إلى أنها ملكة سبأ.

*هي التي حضرت إلى سليمان بعد سماع أخبار عن قوة ملكه.

*أوتيت ملكا عظيما وثراء عجيبا .

*صاحبة رأي وقرار وحكمة.

ب/بلقيس في القرآن الكريم:

ورد ذكر الملكة بلقيس في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، وذكرت قصتها مع النبي سليمان عليه السلام، وكان صاحب خبرها الهدهد الذي ذهب متقصيا موضع الماء في إحدى جولات النبي سليمان، فاكتشف مملكة سبأ وكان

بذلك هذا الخبر شفيعا له عند النبي الذي توعده بالعذاب الشديد، وعليه عاد ومعه عذره ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ،إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل/22-23). فما كان من سليمان إلا أن تحرى صدق الهدهد فبعث بكتاب إلى ملكة سبأ يطلب منها أن تأتي مسلمة خاضعة وقومها ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ،أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل/30-31). وكان أن استشارت بلقيس قومها في أمر هذا الكتاب ،ولما كانت صاحبة رأي وحكمة فإنها رفضت الدخول في حرب كما أشار قومها ورأت رأيا مخالفا ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل/34) وبصرت بما لم يبصروا ورأت أن ترسل إلى سليمان بهدية، ولكنه ردّ عليهم بردّ عنيف،عندها أقرت بلقيس بقوة سليمان وعظمة سلطانه،فجمعت جنودها وحرسها واتجهت إليه، وأمر بتنكير عرشها فقال لها النبي سليمان متسائلا: ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ؟قَالَتْ :كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولم تؤكد أنه هو لعلمها أنها خلفت عرشها وراءها ولم تعلم أن لأحد هذه القدرة لجلبه هنا كما أنها لم تنف أن يكون هو وهذا يبرز فطنتها وذكاءها. وكانت نتيجة هذه الزيارة أن اعترفت بلقيس بأنها كانت ظالمة لنفسها بعبادتها لغير الله ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾وقد أفاض المفسرون في إيراد تفاصيل كثيرة عن قصة هذه الملكة اليمنية، وأضافوا معلومات كثيرة ولكن من خلال عرضنا للقصة في القرآن الكريم يمكن أن نسجل ما يلي :

*لم يورد القرآن الكريم اسم هذه الملكة.

*الوسيط بين النبي سليمان وبلقيس كان الهدهد.

*رجاحة عقل بلقيس وحكمتها وحسن مشاورتها .

*عظمة ملكها وثرائها .

ذكاء بلقيس وفطنتها.

*إسلام الملكة بلقيس.

ورغم بعض الاختلافات الموجودة بين العهد القديم والقرآن الكريم حول مجيئها وحوارها مع سليمان إلا أن هناك اتفاق في عظمة ملكها وثرائها وحكمتها وجمالها وهذه العناصر مجتمعة هي التي ستدخل هذه الملكة الحميرية التاريخ من بابه الواسع.

2- بلقيس في التراث الإنساني:

<u>*بلقيس في النصوص التاريخية:</u>

حظيت "بلقيس" بمكانة مميزة عند المؤرخين والإخباريين العرب وغير العرب منذ القديم، وقد اعتمد المؤرخون في جمع أخبارهم حول هذه الملكة الجنوبية على ما توفر من نصوص دينية (العهد القديم والجديد والقرآن الكريم)، وعلى الشروح والتفسيرات التي واكبت هذه النصوص الدينية وما اعترضها من زيادة أو نقصان زمانا ومكانا. ولعل أهم ما أثار اهتمام وجدل هؤلاء اسم هذه الشخصية وأصولها وموطنها وتاريخ ميلادها وحياتها وموتها، وإذا تصفحنا كتب

الإخباريين العرب وبعض النصوص التاريخية نجد حديثا مكثفا عن ملكة سبأ، تختلط فيه الحقيقة التاريخية مع المخيلة الشعبية، وتبدأ "بلقيس" تدريجيا في ارتداء الحلة الأسطورية التي ستمكنها من اقتحام كل الحدود والثقافات.

يشير معظم المؤرخين والمهتمين بالحضارات الشرقية القديمة أنّ بلقيس حكمت في القرن العاشر قبل الميلاد، وتأتي في المرتبة الثامنة عشر في تسلسل الملوك الذين حكموا مملكة سبأ.وقد أورد المؤرخ اليمني "أبو الحسن الهمداني "أن عدد ملك سبأ بلغ تسعة وأربعين ملكا، وهناك روايات أخرى تذكر أكثر من ذلك، ومن أوائل ملوكهم حسب ما توفر من حفريات تاريخية الملك سبأ الأكبر الذي قام ببناء سدّ مأرب.

ينقل "ابن جرير الطبري" في مصنفه التاريخي "تاريخ الأمم والملوك" نصا يحوي جملة من المعلومات حول أصل بلقيس ونسبها جاء فيه «وهي فيما يقول أهل الأنساب: بلمقة ابنة اليشرح، ويقول بعضهم: ابنة ايلي شرح، ويقول بعضهم: ابنة ذي شرح بن ذي جدن بن ابلي شرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[2] . والأمر نفسه يشير إليه "ابن حزم الأندلسي" في جمهرة أنساب العرب، حيث يعرف "بلقيس" أنها: « بنت إيلي أشرح بن ذي جدن بن إيلي أشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي... وهم من التتابعة، وهم من بني حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان...»[3]، وسجّل "المسعودي" اسمها على النحو التالي: «بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو الرائش...»[4].

يتضح من النصوص السابقة أنّ هناك اتفاق عام حول نسب "بلقيس"، واختلاف حول الاسم حيث لم يستعمل في النص الأول والثاني اسم(بلقيس)، وإنما استعمل اسم(بلمقة)؛ ويتردد الاسم الأخير في روايات كثيرة ويجتهد بعض الإخباريين واللغويين في معرفة أصوله واشتقاقاته ودلالته. ويذهب الكثير إلى اعتبار"بلقيس" لقبا وليس اسما عدا "نشوان الحميري"الذي يرى أن "بلقيس" اسمان جعل اسما واحدا مثل حضرموت وبعلبك، وذلك أن بلقيس ملكت بعد موت أبيها الهدهاد[5]، وعموما تبقى قضية الاسم من أبرز القضايا التي اختُلِف حولها، ولعل هذا التباين مردّه ضعف الذاكرة الشفوية نتيجة تقادم القرون وغياب الحقيقة التاريخية الكاملة (اختلاط التاريخ بالأسطورة)، ولاشك أن عدم ذكر هذا الاسم في النصوص الدينية دعّم هذا الاختلاف، وبدأت شيئا فشيئا هذه الشخصية تدخل التاريخ والأسطورة من بابهما الواسع.

تشكّلت أسطورة بلقيس في مواقع جغرافية مميزة مكانا وزمانا، ومن بين هذه المواقع نذكر: أيرم وسبأ وصرواح وسلحون وتدمر وغيرها ومازالت الحفريات إلى يومنا هذا حول بقايا ملك بلقيس. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادتها ووفاتها، وتذهب بعض المراجع التاريخية إلى أنّ سليمان-عليه السلام- تزوج من بلقيس، وأنه كان يزورها في سبأ من حين إلى آخر وأنها أقامت معه

حوالي سبع سنين، وتوفيت فدفنها في تدمر، وهناك من يذهب إلى أنها دفنت في مأرب.

اختلطت سيرة هذه الملكة بسير ملكات أخريات حكمن هذه المنطقة، وقد أخذت بلقيس صورا كثيرة في التراث الإنساني فهي الملكة المحاربة التي فتحت بابل وأذربجان ، وهي التي قامت بترميم سد مأرب، وهي في بعض النصوص والمرويات ذات أصول جنية، وهناك شبه كبير بين بلقيس وزنوبيا، فكلتاهما كانتا رمزا للحكمة والجمال، وهناك شبه بين بلقيس وسميراميس فكلتاهما مثال للجمال والذكاء وترتبطان بأماكن وقصور(بابل/سبأ). وعموما فإن هذه المرويات والنتف النصية أسهمت هي الأخرى في أسطرة هذه الملكة، ودخولها عالم الإبداع باعتبارها رمزا متجددا في كل زمان ومكان.

*__بلقيس في المرويات الشفوية:__

تعتمد المرويات الشفوية التي تسرد قصة ملكة سبأ على أهم الثوابت التي ركّزت عليها النصوص الدينية (العهد القديم والجديد، والقرآن الكريم)، وتضيف بعض العناصر الأخرى التي تدعم أسطورية هذه الشخصية، وقد ركزت القصص الشعبية التي ترددت على جملة من الموضوعات أهمها :

*نسب بلقيس وقصة تولدها وأصولها الجنية، وفي هذا الجانب أضافت المخيلة الشعبية الكثير من العناصر.

*قصة توليها العرش وكيفية دهرها لخصومها، وفي هذا المجال ظهرت هذه الملكة في المخيال الشعبي مثالا للقوة والذكاء والفطنة (قصتها مع ذي الأذعار).

*قصة لقائها بالنبي سليمان –عليه السلام–وما دار بينهما، وقد اعتمد الرواة على ما ورد في النصوص الدينية مع بعض التحويرات والإضافات.

*الأحاجي والألغاز التي نسبت إليها؛ حيث روي أنها ألقتها على النبي سليمان لتختبر ذكاءه وحكمته، وقد انتقلت هذه الأحاجي والألغاز بعد ذلك وتداولها الناس، وعليه تتجلى "بلقيس" اعتبارها قاصة وملغزة ماهرة في التراث الشعبي.

ويمكن أن نشير في هذا السياق أن الإخباريين والمؤرخين اعتمدوا على هذا القصص المتواتر في تحديد ملامح هذه الملكة الحميرية التي دخلت التراث العربي مثالا للمرأة الحكيمة والجميلة والفطنة.

وقد امتد تأثير هذه المرأة ليصل إلى الحبشة، حيث دخلت التراث الحبشي المسيحي، وتجلت من خلال الملحمة الدينية الحبشية "عظمة الملوك أو كبرانجست"[(6)] التي صاغتها المخيلة الشعبية، وحاولت فيها أن تربط بين الملكة بلقيس وبين ملوك الحبشة على اعتبار أنهم ينحدرون من سلالة هذه الملكة. وتظهر صورة بلقيس في هذه الملحمة الدينية باعتبارها مخلصة ومطهّرة ومثالا للجمال والفهم والحكمة، وبالتالي لم يختلف وصف هذه الملكة عما كان سائدا في مرويات العرب، كما أنها تكرم هذه الملكة لأنها تجعلها صاحبة الحكمة؛ فهي التي ذهبت إلى سليمان لتختبر حكمته، وعليه فإن هذه الملحمة تقدم صورة إيجابية لبلقيس لا نراها إلا في الكتابات الصوفية العربية والإسلامية والمسيحية.

*بلقيس في نصوص الصوفيين:

يعدّ "محي الدين بن عربي" (560هـ-638هـ) من أبرز الصوفيين الذين تحدثوا بإسهاب عن هذه الملكة في كتابيه (الفتوحات المكية وفصوص الحكم)، كما نظم قصيدة طويلة فيها استلهام لهذه الشخصية باعتبارها مثالا للحكمة الخالدة والصفاء الروحاني، وأثرى هذا الحديث في كتابه "ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق"، وتأخذ "بلقيس" عدة وجوه في كتاباته فهي[7]:

1-أنثى متولدة بين الإنس والجن، يقول في شرح ترجمان الأشواق:«...كما كانت بلقيس متولدة بين الجن والإنس، فإنّ أمها من الإنس، وأباها من الجن. ولو كان أبوها من الإنس وأمها من الجن لكانت ولادتها عندهم. وكانت تغلب عليها الروحانية ولهذا ظهرت بلقيس عندنا»[8]. وهذا الرأي سرعان ما يتجاوزه ابن عربي في مرحلة لاحقة، حيث ينفي ذلك معتبرا إياه من تأثير المرويات والمقولات، وبالتالي سوف تتغير صورة "بلقيس".

2-بلقيس تنتمي إلى عالم الإنس:ويعتمد "ابن عربي " على جملة من الحجج لإبراز ذلك يستمدها من إجابات هذه الملكة عندما التقت النبي سليمان، فكانت كلها نسبية(كأنه هو/عندما سألت عن الصرح الممرد).

3-أنثى ذات منزلة فقهية: استطاعت أن تتنزه عن التقيد في اعتقادها في الله، فهي لم تنقد لسليمان وإنما انقادت لله رب العالمين، وإسلامها بالدليل القرآني يؤكد تفوقها وتفردها وبالتالي تجلت في كتابات"ابن عربي" مثالا للشخصية الأنثوية المتفوقة.

ومجمل القول لقد حظيت هذه الأنثى بمكانة مميزة في التراث الإنساني، حيث كانت حاضرة بقوة في نصوص الإخباريين العرب وغيرهم، وتجاوزت حدود اليمن لتصل إلى الحبشة وإيران وتركيا والصين، وهذا ما جعلها شخصية متجددة في كل الأزمنة، وشغلت حيزا كبيرا من التراث الشعبي العربي، واهتم بها المتصوفة، فكانت في كل هذه النصوص (التاريخية والشعبية والصوفية) مثالا للحكمة والجمال والذكاء، ولا شك أن هذه العناصر ستكون موتيفات رئيسية يعتمد عليها الأدباء في استلهامهم لهذه الشخصية في التراث الأدبي العربي .

3-بلقيس في الأدب العربي:

حظيت بلقيس بمكانة مميزة في الشعر العربي قديمه وحديثه، وكان التوظيف في المرحلة الأولى يرتبط بما نسج حول هذه الملكة من قصص وخرافات حول اسمها وملكها وما شيدته من أبنية ومعالم لا تزال شاهدة على ذلك، وقد برزت في توظيفات القدماء جملة من الموضوعات تتحدث عن أصلها وكيفية توليها الحكم ولقائها مع النبي سليمان، وإسلامها، وتحولت في مرحلة متقدمة؛ أي في توظيفات المحدثين إلى رمز للحكمة والثورة والحرية والوطن.

أ/الشعر القديم:

أسهمت المرويات الشفوية والقصص والأخبار التي حيكت حول هذه الملكة الحميرية، في تجلي شعر يتحدث عن بلقيس -باعتبارها الملكة سليلة الحسب والنسب-ويمكن أن نؤكد في هذا السياق أن النصوص الدينية والتاريخية كانت

مصدرا أساسيا استقى منه الشعراء مادتهم القصصية حول "بلقيس"، وقد نقل بعض المؤرخين أمثال (الهمداني وابن حزم) أشعارا نسبت إلى تبع اليماني، يتحدث فيها عن بلقيس ويربط نسبه بها، ويؤكد فيها شرفها وقيمتها بين قومها، ومنها قوله[9]:

عَمَّتي الخَيْرُ حينَ يُذْكَرُ بَلْقيـ ... سُ وَ مَنْ نالَ مَطْلَعَ الشَمْسِ خالي

وفي سياق آخر يورد صاحب "الإكليل"[10] أبياتا منسوبة إلى "تبّع" تبرز عظمة ملك بلقيس الذي ينتسب إليه تبّع، ويربط بلقيس بالجنتين، وتوضح الفترة الزمنية التي استغرقها حكم هذه الملكة(ثمانين عاما):

وَلَدَتْني مِنْ المُلُــوكِ مُلُوكِ ... كلّ قيلٍ مُتَــوَّجٌ صِنْدِيــدُ
وَنسَاءٌ مُتوجَاتٌ كبلقِيــس ... وشمسَ وَمَنْ لميسَ جُدودي
مَلَكَتْهُم بِلْقيسُ ثَمانينَ عَامًا ... بأوْلي قوةٍ وَبَأْسٍ شَديــــدِ
ولِها جَنَّتانِ تَسْقِيهمَا عَيْنَـا ... نِ فَارَا بسَدِّهَا المَسْــــدُودِ
لاتبالي إنْ مَا أَتَى سَيلُ غَيْثٍ ... جَاءهَا المَاءُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدِ

والملاحظ على الأبيات السابقة التي اعتمدها المؤرخون أنها اهتمت بهذه الملكة من جانب ميزها تاريخيا توليها كامرأة الحكم، وأهم الإنجازات التي قامت بها حيث يُعزى إليها بناء سد مأرب، بينما يذهب البعض إلى أنها قامت بترميمه فقط. ومثلما شغل السشعراء ملك بلقيس شغلهم كذلك انقضاء ملكها، حيث تظهر في أشعار "أمية بن أبي الصلت"[11]، الذي ينسب سبب انقضاء ملكها إلى الهدهد، ويشير إلى أنه سليل هذه الملكة الحميرية، يقول في هذا السياق:

مِنْ قبْلِهِ بَلقيسُ كانتْ عَمَتي ... حَتى تَقضَّى مُلْكهَا بالهُدْهُدِ

فالإشارة هنا إلى انقضاء ملكها بالهدهد، تحيلنا إلى قصة لقائها بالملك النبي سليمان، فبمجرد ارتباط بلقيس به، وانبهارها بملكه الذي فاق ملكها، أصبحت تابعة له.

ويبقى تميز ملك بلقيس وآثره التي بقيت مجسمة في أبنية من أهم الموضوعات التي ركّز عليها الشعراء لبيان عظمتها وتفوقها كامرأة حاكمة منها قول "علقمة بن ذي جدن"[12]:

هَلْ لأُناسٍ مِثْلَ آثَارِهِــم ... بأَيْرَم ذاتِ البِناءِ اليفَــعِ
أوْ مِثْلَ صِرْوَاحَ وَمَا دُونها ... مِمَّا بَنَتْ بَلْقَيسُ أوْ ذُو تبَّعِ

أما "نشوان الحميري"[13] فيورد في القصيدة الحميرية قوله الذي ينفي فيه أن يكون النبي سليمان نكح بلقيس دون أن يتزوجها، ويؤكد طهر ونقاء الملكة الحميرية، ويرد على أولئك الذين حاولوا تشنيع الملك والنيل منها:

زَارَتْ سُلَيمَان النَّبي بتدْمُر ... مِنْ مَأْربَ دِيناً بلاَ اِسْتِنْكَاحِ

وعليه تبرز صورة أخرى لملكة عزيزة طاهرة عفيفة، عكس ما رُوِّج عنها في بعض الأخبار و الكتابات.

تتحول بلقيس من رمز للعظمة والبناء والتشييد إلى رمز للصفاء و الحكمة الإلهية في الشعر الصوفي، حيث تتحول في شعر ابن عربي[14] إلى رمز صوفي يشيع بالنورانية والحكمة والصفاء في لحظات الظهور والتجلي، وتبرز هذه الصور

مجتمعة في ديوانه "ترجمان الأشواق" الذي نظمه سنة 598هـ ومما ورد فيه قوله:

مِنْ كُلِّ فاتِكَةِ الأَلْحَاظِ مَـالِكَةٍ   تخَالُهَا فَوْقَ عَرْشِ الدُّرِ بَلْقِـيِسَا
إِذَا تمشتْ عَلَى صَرْحِ الزُّجَاجِ تَرَى   شمَسًا عَلَى فُلْكٍ فِي حِجْرِ إِدْرِيسَا
تُحَيِّ،إِذَا قَتَلَت بِاللَّحْظِ، مَنطِقِهَا،   كَأَنهَا عِنـدَمَا تُحَيِّ بهِ عِيسَـا

فبلقيس هي القوة والحكمة والجمال والإشراق؛ هي لحظة التجلي، ونلاحظ في هذه الأبيات مزج بين المادي (العر/تمش/الفلك) والمعنوي (مالك /تحي/ اللحظ) أي بين الجسد والروح. ويواصل الشاعر في إثراء الجانب الروحي لا الجسدي لهذه المرأة قائلا:

سَأَلَتْ إِذْ بَلَغَتْ تَرَاقِيـهَا   ذَاكَ الجَمَالُ وَذَاكَ اللُّطْفُ تَنْفِيسَا
فَأَسْلَمَتْ، وَوَقَانَا الله شرَتَهَا،   وَزَحْزَحَ المُلْكُ المَنْصُورُ إِبْلِيـسَا

هكذا تتحول بلقيس تدريجيا من رمز تاريخي إلى رمز صوفي، ثم في مرحلة لاحقة إلى رمز اجتماعي وسياسي تحرري مع الشعراء المحدثين والمعاصرين.

ب/في الشعر الحديث والمعاصر:

استلهم بعض الشعراء المحدثين والمعاصرين أسطورة بلقيس للتعبير عن جملة التحولات التي عرفها الوطن العربي عقب الحربين العالميتين، حيث تحولت من رمز للحكمة والجمال والعظمة إلى رمز للثورة والحرية والوطن، فقد خرجت من رداء الماضي إلى الزمن الحديث تشاطر المجتمعات العربية آلامها وأحلامها، فهذا الشاعر التونسي الرومانسي الثائر "أبو القاسم الشابي" يوظفها في قصيدة (جمال الحياة) ضمن ديوانه "أغاني الحياة" باعتبارها رمزا للجمال و الثورة والكفاح، يقول في هذا السياق:

وَاعْتَلَتْ بَلْقِيس عَرْ   ش اللَّيْل، في تِلْكَ النَّوَاحِي
ثُمَّ مَالَتْ لِغـرُوب   بَعْدَ اِضْرَام الكِـفَاح
وَاسْتَوَى اَللَّيْلُ بِرَغْـمِ الشَّمْسِ فِي اَلعَرْشِ الفِسَـاح(15)

وقد تزايدت وتيرة توظيفها منذ الستينات، حيث تحظى الملكة بلقيس في موطنها الأصلي اليمن بمكانة مميزة، ووظّف شعراء اليمن هذه الأسطورة التي ترتبط بهم ارتباطا حميميا؛ فهي العشق والجمال والوطن، واعل أبرز شاعر يمني هام بحب بلقيس شعريا الشاعر اليمني "عبد الله البردوني"، الذي سمي بعاشق بلقيس ووضاح اليمن، حيث يوظف بلقيس في ديوانه الأول الصادر سنة1961م" من أرض بلقيس" وفي ديوان آخر صدر بعد عشر سنوات من صدور الأول، أي في سنة 1972م وسمه بـ"لعيني أم بلقيس"، وتتجلى بلقيس في القصيدتين رمزا للوطن والتاريخ والذاكرة الضاربة عميقا، يقول في قصيدة "من أرض بلقيس":

مِنْ أَرْض بَلْقِيس هَذا اللَّحْنُ وَالوَتَرْ   مِنْ جَوِّهَا هَذِهِ الأَنْسَامُ وَالسَّـحَر
مِنْ صَدْرِهَا هَذِهِ الآهَاتُ، مِنْ فمِهَـا   هَذِي اللُّحُونُ، ومِنْ تَارِيخِهَا الذِّكَر
مِنْ هَذِهِ الأَرْضُ هَذِي الأُغْنِيَاتُ،ومِنْ   رِيَاضِهَا هَـذِهِ الأَنْغَـامُ تَنْتَثِـرْ

مِنْ هَذِهِ الأَرْض حَيْثُ الضَّوْءُ يَلْثُمُهَا وَحَيْثُ تَعْتَنِـــقُ الأَنْسَامُ وَالشَّجَـــرُ
مَا ذَلِكَ الشَدْو؟ مِنْ شَادِيهِ؟ إِنَّهُمَا مِنْ أَرْض بَلْقيس هَذَا اللَّحْنُ وَالوَتَرُ(16)

فاليمن السعيد هو موطن هذه الملكة، وتاريخها مايزال صامدا شاهدا على البناء والتشييد والعظمة والإشراق، وعليه يطوع الشاعر هذا الرمز الأسطوري"بلقيس" ليصبح معادلا موضوعيا لليمن، بل يتحول في مرحلة لاحقة إلى الشاعر نفسه؛ فبلقيس هي اليمن وهي البردوني وهذا ما يبرزه في قصيدة "لعيني أم بلقيس" حيث يقول:

لِعَيْنَيْ أُمِّ بَلْقِيس بِدَايَاتِي وَ غَايَاتِي
لَهَا أَغْلَى حَبِيبَاتِي لَهَا أَزْهَى فتوحَاتِي
لَهَا غَزْوِي وَإِرْهَاقِي وَإِبْحَارِي إِلَى الآتِي
وَأَسْفَارِي إِلَى المَاضِي فُتُوحَاتِي وَرَايَاتِي
لِعَيْنَيْ أُمِّ بَلْقِيس وَأَقْمَارِي وَغَيْمَاتِي
وَأَنْقَاضِي وَأَجْنِحَتِي لهَا أَشْوَاق أَوْبَاتِي

وتتحول تدريجيا إلى أم حنون، ويواصل في إثراء هذه الأم (اليمن) التي تحن إلى غد أحسن قائلا:

وَمِنْ أَحْلاَمِ أَطْفَالِي هُنَا تَارِيخُهَا العَاتِي
هُنَا مِيلاَدِي غَالِيَتِي وَرَاءَ الغَيْهَبِ الشَاتِي
هُنَا تَمْتَدُ عَارِيَةً فَيَمْضِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِي
تَحِنُّ إِلَى الغَدِ الأَهْنَى فَيَمْضِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِي(17)

ويوظفها كذلك الشاعر اليمني "عبد العزيز المقالح" في عدة قصائد منها: (فوق ضريح عبد الناصر، ورحلة الشمس، وفي انتظار عودة الشهيد، والسفر في ذاكرة الأبجدية) يقول في قصيدة فوق ضريح عبد الناصر:

يا إخوتي هل تذكرون حين مرّ
كيف بكى حزناً على "بلقيس" و "بن ذي يزن
ماتا فلم يضمهما قبر و لم يسترهما كفن
كان على سفر
فثار واستقر
وصاح في الأطلال و الدمن
ثوري، تحركي
فثارت الأحجار والشجر
و ثارت اليمن(18)

يبدو أن استحضار "المقالح" لبلقيس كان من خلال استلهامه لشخصية "جمال عبد الناصر" رمز الثورة والتغيير والقومية العربية، فكانت زيارته إلى اليمن، ووقوفه عند معالم مدينة بلقيس إيذانا بالثورة والتغيير، وعلية فإن بلقيس رمز لتاريخ اليمن المجيد وعبد الناصر رمز لتاريخ العروبة المجيد، وما يجمع الشخصيتين هو:قوة الذكاء، ودافع التغيير نحو الأحسن، وولاء الرعية.

أما "محمد الفيتوري" في ديوانه " البطل و الثورة والمشنقة " فإنه يستلهم شخصية بلقيس جنبا إلى جنب مع النبي سليمان يقول في قصيدة موت الملك سليمان:

خمسون ألفَ ماردٍ
ينتظرونَ الإذنَ بالمثولِ
تسعون ألف حارسٍ
يرقبُ عرسَ الشمسِ في ذهول.
و الشمسُ في معارجِ اكتمالها مُحتجبَه
تغسلُ جدرانَ المدافنِ المذهبه
وعرس بلقيس الجميلَه المعذبه
والمدن الكبرى التي
تسقط تحت عجلات المركبه[19]

تتحول هذه الملكة الحميرية القوية إلى جميلة معذبة تنظر في حسرة إلى المدن التي تسقط الواحدة تلو الأخرى؛ فهي في هذه القصيدة رمز للوجع والضياع، رمز للعروبة المعذبة التي تسقط يوما بعد يوم بعد أن مات الملك سليمان، ونلمح هنا التلازم بين الشخصيتين (سليمان وبلقيس) فحياته عزلهذه الملكة وموته ذل لها.

وتتواصل هذه الصورة التي تبرز بلقيسا رمزا للضياع والتشتت والتمزق وهذا ما عبّر عنه الشاعر" عبد الوهاب البياتي" في ديوانه قصيدة "الصورة والظل":

لو جمعتُ أجزاءَ هذي الصورة الممزقه
إذن لقامتْ بابلُ المحترقه
تنفضِ عن أسمالها الرمادَ
ورف عن الجنائن المعلقه
فراشة وزنبقه
وابتسمت عشتار
وهي على سريرها تداعبُ القيثار
وعاد أوزريس
لانطفأت أحزانُ حادي العيس
ونوّرتْ في سبأ بلقيس
وعادت البكاره
لهذه الدنيا التي تضاجع الملوكَ والحجاره
لهذه القديسة الهلوك.[20]

استحضر البياتي أسطورة بلقيس جنبا إلى جنب مع أسطورتي عشتار وأوزريس ليعبر عن تمزق هذه الصورة المميزة وبقاء الظل فقط؛ إنها صورة الجمال والخصب والحياة باعتبار أنّ هذه الأساطير الثلاثة – عشتار وأوزريس و بلقيس – تعبر عن ذلك فهي رمز للبعث والتجدد، وقد استطاع الشاعر أن يطوع

هذه الرموز الثلاثة خاصة من خلال استخدام الكلمات التالية(ابتسمت/عاد/نوّرت)، وعليه فهي رمز للعودة والنور والتجدد.

تتحول "بلقيس" من رمز جماعي، يعبر تارة عن العروبة والثورة، وتارة أخرى عن البعث والتجدد إلى رمز شخصي ذاتي مع الشاعر السوري"نزار قباني" الذي يكتب رائعته (قصيدة بلقيس)، في فاجعة زوجه بلقيس، فيبدأ من الوجع، وتتفجر قريحة الشاعر ويستحضر صورة بلقيس: (المرأة/ العاشقة/ الزوجة/ الملكة/ القصيدة)، إنها بلقيس التي تجاوزت حدود المكان و الزمان:

بلقيسُ ..
أيّتها الشهيدةُ .. والقصيدةُ ..
والمُطَهَّرةُ النقيَّهْ ..
سبأٌ تفتشُ عن مليكتها
فرُدّي للجماهير التحيَّهْ ..
يا أعظَمَ المِلِكاتِ ..
يا امرأةً كلَّ أمجاد العصور السومَريَّهْ
بلقيسُ ..
يا عصفورتي الأحلى ..
ويا أيقونتي الأغلى
ويا دمعاً تناثرَ فوقَ خَدِّ
المَجْدليَّهْ[21]

عرفت أسطورة بلقيس توظيفات مختلفة في الشعر العربي الحديث والمعاصر، واستطاع الشعراء تطويعها لتعبر عن مجمل التحولات التي عرفها المجتمع العربي، ويكون استلهامها تأكيد للجمال والقوة والاستمرار والحكمة، كما تتجلى هذه الأسطورة في نظم الشعراء لتجسد جماليات القصيدة العربية، من المحافظة على القصيدة العربية نظما كما أبدعتها عبقرية السلف (الشابي والبردوني)، إلى تحقيق جماليات القصيدة المعاصرة (البياتي والفيتوري وقباني).

وعليه فهي رمز شعري متجدد إنْ على مستوى الموضوعات أو الأشكال. ولم يقف استلهام الأدباء العرب لها شعرياً فقط بل تجلت في أشكال أدبية أخرى.

ج-بلقيس في المسرح العربي:

وظف الكاتب المسرحي "توفيق الحكيم" شخصية "بلقيس" في مسرحية **سليمان الحكيم**، التي نشرت لأول مرة سنة 1943 م، حيث يصرح الكاتب في مقدمة المسرحية أنه بناها على كتب ثلاثة :القرآن الكريم و التوراة و ألف ليلة ،فمن القرآن استخدم ما ورد عن ملكة سبأ والهدهد والجن والقصر الممرد، ومن التوراة روحها الشعرية (نشيد الإنشاد)، ومن ألف ليلة وليلة قصة الصياد والقمقم الذي سجن فيه الجني (داهش بن الدمرياط) .

وقد استغل الحكيم كل هذه العناصر وحاول تطويعها بالاتكاء على موضوع جوهري هو إغراء القدرة لمالكها على إساءة استخدامها واعتقاده أنه يستطيع أن يحقق بها ما أراد حتى لو كان امتلاك قلب بشري .

حيث تبرز هذه المسرحية رغبة كل من" سليمان" و"بلقيس" تحقيق عاطفة نبيلة هي "الحب" باعتماد القوة؛ فهذا سليمان يسعى بكل ما أوتي من قوة لامتلاك قلب ملكة سبأ، وهي منشغلة عنه بحب أحد أسراها واسمه "منذر"، وهذا الأخير هائم بحبّ وصيفتها "شهباء"، التي تحاول التضحية من أجل الملكة بلقيس .

وعندما يتأكد "سليمان " من انشغال بلقيس بحب "منذر" يستخدم الجن، فيسحر منذر تمثالا حجريا يوضع داخل حوض من البلور. ويكون خلاصه بذرف الدمع عليه، حيث لا تتردد "بلقيس " في ذرف الدمع حتى يمتلئ جزء كبير من الحوض، ولكن بحيلة من الجني يبعد بلقيس، ويقرب بلقيس التي تتقدم أمام التمثال وتذرف دمعتين تصلان إلى قلب منذر وبهما تعود إليه الحياة، وتعلم بلقيس بما جرى، وتقرر العودة إلى مملكتها، لا تستطيع منح سليمان غير الصداقة وهذا ما يبرزه حوار بلقيـــــس مع سليمان(22):

((بلقيس:حقا يا سليمان ...إنّ قلب الإنسان لهو الأعجوبة العظمى...

سليمان:أجل يا بلقيس...

بلقيس:أعجوبة موصدة أمام القدرة.

سليمان:وأمام الحكمة.

بلقيس:نعم.

سليمان:بماذا إذن تفتح مغاليقها؟

بلقيس:لست أدري.

سليمان:نعم...هناك شيء واحد مفتاحه في يد الربّ وحده.

بلقيس:يدهشني أنّك كنت تجهل ذلك يا سليمان.

سليمان :هي القوة يا بلقيس ... تعمي أبصارنا أحيانا عن رؤية عجزنا الآدمي وتنسينا ما منحنا من حكمة ...وتزين لنا المضي في كفاح لا أمل لنا فيه...ما ظنك به بعد اليوم ...ما لون ابتسامتك إذا ذكرت أمامك بعد الآن حكمة سليمان.))

وعليه فسليمان في هذه المسرحية يمتلك القدرة ولا يملك الحكمة، وبلقيس تمتلك القدرة وتفتقد الحكمة كذلك، فكلاهما عجز في مجال تحقيق عاطفة إنسانية نبيلة. وهكذا تمكن الكاتب من تطويع هذه الشخصيتين لتصبحا رمزا لذلك الصراع الدائر على مسرح الدنيا، وتعبّر عن امتلاك الإنسان للقدرة واستخدامها فيما ينبغي و لا ينبغي و فقدانه الحكمة ، وعليه وكأن الحكيم يبرز قضية جوهرية هي ازدياد قدرة الإنسان بنسبة تفوق كثيرا ازدياد حكمته ممّا ينزل بالإنسانية المحن.

الخاتمة:

تعدّ بلقيس من أوفر الشخصيات الأنثوية اليمنية حظا، لما نسج حولها من حكايات وأساطير وقصص، ولا شك أن هذه المكانة ترجع أساسا إلى عاملين اثنين هما :

*كون بلقيس ملكة تتميز بالذكاء والجمال.
*ارتباط هذه الملكة بالنبي سليمان.

فالعاملان أسهما في تبلور أسطورة بلقيس، ودخولها كل النصوص(الدينية والتاريخية والإبداعية)، وقد أخذت "بلقيس" صورا كثيرة في التراث الإنساني، وانتشرت في كل مكان، وهي تمتلك بعض مواصفات نساء مميزات تاريخيا مثل:زنوبيا وسميراميس وكليوباترا، اجتمعت فيهن صفات الأنوثة والقوة والحكمة وتحولن إلى أساطير أدبية.

والنتيجة التي يمكن أن نستخلصها ،هي أن ملكة سبأ عرفت توظيفات كثيرة ومتنوعة في الأدب العربي من خلال العودة إلى مصادرها الأصلية (الكتاب المقدس والقرآن الكريم ونصوص المؤرخين والصوفيين)، ومحاولة تطويع العناصر التالية :(الجمال/القوة/الحكمة)، بما يتلاءم وحركية المجتمع العربي، وقناعات المبدع، وفلسفته ونظرته للحياة.

الهوامش:

1- الكتاب المقدس: (العهد القديم والجديد)، دار الكتاب المقدس، الشرق الأوسط، .1985
2-أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك،مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت،ط2، 1987 ،ص.
3- ابن حزم الأندلسي :جمهرة أنساب العرب ،دار الكتب العلمية، بيروت، .1983
4-المسعودي:مروج الذهب ومعادن الجوهر، سلسلة الأنيس الأدبية ،موفم للنشر،الجزائر، .1989
5-زياد منى:بلقيس لغز ملكة سبأ،قدمس للنشر والتوزيع،ط1، 2004 ،ص53و.54
6-أنظر زياد منى: بلقيس لغز ملكة سبأ الجزء الموسوم بـ"بلقيس ملكة اليمن في التراث الحبشي – المسيحي"،ص163 وما بعدها.
7-سعاد الحكيم:المعجم الصوفي،ندرة للطباعة والنشر والتوزيع،بيرروت،ط1، 1981،ص212./213
8- أنظر محي الدين بن عربي "ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق"(علق عليه ووضع حواشيه خليل عمران منصور،دار الكتب العلمية ،بيروت،لبنان.
9-أنظر:أبو محمد بن أحمد يعقوب الهمداني:صفة جزيرة العرب ،تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ،الرياض، 1977.وزياد منى:بلقيس لغز ملكة سبأ،ص .47
10- أنظر:أبو محمد بن أحمد يعقوب الهمداني:الإكليل الجزء الثاني،حققه وعلق حواشيه محمد بن علي الأكوع الحوالي،القاهرة،1966. وزياد منى:بلقيس لغز ملكة سبأ،ص294و.295
11-أنظر:شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلكلور و الأساطير العربية، دار العودة،بيروت، ط1 ، 1982،(بلقيس ملكة سبأ العربية، ص.124
12-أنظر: زياد منى:بلقيس لغز ملكة سبأ،ص .51
13-المرجع نفسه:ص.100
14- محي الدين بن عربي "ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق"(علق عليه ووضع حواشيه خليل عمران منصور،دار الكتب العلمية ،بيروت،لبنان،ص13 و14و.92
15-أبو القاسم الشابي:ديوان أغاني الحياة،دار تلانتيقيت للنشر،بجاية،2003،ص.16
16-عبد الله البردوني:ديوان من أرض بلقيس،المجموعة الكاملة،المجلد الأول، دار العودة، بيروت،ط1 ،1979 ،ص55./58
17- عبد الله البردوني:لعيني أم بلقيس،بغداد، .1972
18-عبد العزيز المقالح:الديوان،قصيدة فوق ضريح عبد الناصر،ص.57
19--الفيتوري (محمد): الديوان،دار العودة ،بيروت،ط3، 1979،ص.580
20- البياتي (عبد الوهاب): الديوان ،المجلد الثاني ،دار العودة ،بيروت،ط3، 1979،ص262./263
21-نزار قباني: قصيدة بلقيس، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط6، 1998،ص11./12
22-أنظر: توفيق الحكيم: سليمان الحكيم(مسرحية نشرت لأول مرة سنة 1943م)، 1948، (المنظر السادس من المسرحية).